السنة التاسعة (ربيع الاول سنة ١٣٦١ — ابريل سنة ١٩٤٣م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

ص (ح ١٩٣٤) ع

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوي

في القطر المصري ——— ٢٠ قرشاً
خارج القطر ——— ٣٠ قرشاً
ثمن العدد ——— ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

صفحات مجهولة

من تاريخ العرب فى أوربا (١)

للأستاذ عمر الدسوقى

من تلك الرمال الهادئة الوادعة ، وتلك البقاع النائمة الهاجعة ، وهاتيك القفار التى تندر فيها نسمات الحياة ، دوت صرخة الحق والدنيا تغط فى سبات عميق من الجهل والظلم ، والرق والعسف ، فارتجت أطرافها من تلك الصيحة المدوية ، وزلزلت عروش غاصت أقدامها فى بطون القرون . وبسطت أذرعها على جنبات البسيطة ، وأخذ ذووها يتساءلون : أى داهية دهياء انصبت على الأرض فادتِ ، وأى قوة هزت أعوادها فساخت ؟ !!

أجل ! ظهرت بين وهاد مكة وشبابها عصابة عمر الايمان أفئدتها ، واهتدت بهدى الله وقرآنه فحطمت رموز السخف العقلى والانحلال الخلقى ، وآثرت أن تبعث فى العالم نفحة من قوة يقينها ، وتبدد دياجير الجهل بشعلة إيمانها ؛ فاتحدت بعد أن كانت أباديد ، وانساحت فى أرجاء المعمورة صفوفا متراصة . مثل أركان الجبروت والطغيان ، وتنصف للحق من البغى والعدوان .

أرأيت السيل الجارف كيف يكتسح ما يعترضه من جلاميد الصخر وباسقات الأشجار ، وكيف ينساب فى الأودية فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ؟! هؤلاء هم العرب بعد أن دخل الاسلام قلوبهم فاستل منها الإحن والأحقاد ، كانوا حرباً على الممالك الظالمة والقوى الغاشمة ، وبلسما عذباً على من مل قيود الذل وملته فانعشت فؤاده المكلوم ، وأحيت موات نفسه الكسيرة ، فارتدت إليه حريته ، وحفظت حقوقه وسلمت عقيدته ! !

(١) محاضرة القيت فى نادى دار العلوم فى ١٨ من فبراير سنة ١٩٤٣

أيها السادة !

كلنا يعلم ولاريب كيف غرس العرب فى شبه جزيرة أيبيريا تلك الدوحة الفينانة التى ظلت تنفح العالم بظلها الوريف وثمرها الشهى ثمانية قرون . أعنى الاندلس ، تلك الأغرودة العذبة فى ملحمة تاريخنا المجيد . ولا أريد أن أدخل معكم فى تفاصيل فتحها فذلك مرقوم فى سجلات التاريخ ، ولكن حديثى سيتشعب ثلاث شعب : إلى أى مدى وصل توغل العرب فى أوربا ، وما الأثر الذى خلفوه فى عقليتها وآدابها وفنون حياتها ؟ وما الأسباب العامة التى عصفت بتلك الدوحة الشامخة فاجتثتها لعل فى ذلك تذكرة ، ونحن فى حاجة إلى الذكرى ولاريب .

فتح السمح بن مالك الخولانى والى الاندلس من قبل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز مدينة أربونة عبر جبال الأندلس وهى من مدن فرنسا سنة ٧١٩ ثم والى زحفه حتى قرع أبواب طولون وضيق عليها الحصار وكادت تفتح فى يده لولا أن فاجأه مدد العدو فاشتد القتال وحمى وطيسه ويقول المؤرخ الفرنسى جوزيف رينو (١) « ولما تلاقى الجمعان خيل أن الجبال يلاقى بعضها بعضا وكانت المعركة من أهول مايتصور العقل — وكان السمح يظهر فى كل مكان وسيفه ينطف دما وهو يشعر عساكره بقوله وفعله ، وكان كالفحل الهائج الذى لايردرأسه شىء ، أوكالاسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد فى وجهه فما هو إلا أن أصابته طعنة خر بها صريعا عن جواده ففت ذلك فى عضد المسلمين ونكصوا على أعقابهم يتولى أمرهم عبد الرحمن الغافقى وأرجعهم إلى الاندلس » . وقد حاول الفرنسيون الثورة مرارا على العرب بعد هذه الحادثة ، ولكن تحصين أربونة على يد السمح (الذى لايزال له شارع يعرف باسمه فى تلك المدينة) وقف فى وجوههم حجر عثرة . ثم تمكن العرب فيما بعد من تمكين أقدامهم ببلاد الغال فى إمارة عنيسة الكلبى ، ففتح قرقشونة ، وأحسن تدبير البلاد ونظم الخراج والجزية ، وخلفه (حديدة) الذى استطاع أن يدفع بالغزو حتى كليرمون ويدخل مقاطعة دوفينى Dauphiné وعاصمتها

(١) ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧ فى كتابه غزوات العرب فى مرقسه وسافوى وبيدمونت وسويسرا :

جرينويل ، ويفتتح مدينة ليون وبلاد برجونيا إلى وادى الرون . وشمل الغزو Maçon التى تبعد عن باريس ٤٤١ ك م . ثم أوغاو حتى وصل إلى ديجون Digon ودمروا كما يقول رينو دير Bize . ويذهب رينو إلى أنهم وصلوا الى مقاطعة Tranche-Conté وعاصمتها بيزانسون ، ويقول ليس فى هذا شىء لايقبله العقل ولاسيما فيما يتعلق بمقاطعة فرنش كونتى التى لاتزال بها أسماء عربية وآثار كثيرة تدل على أنهم دخلوها .

ومن ثم تولى امارة الاندلس القائد العربى الكبير والتابعى الجليل عبدالرحمن الغافقى فاكتسح بجيوشه جبال البرانس حتى وصل إلى بوردو وأخذها عنوة فاستنجد دون اكتانية بشارل مارتل أمير فرنسا فأخذ يعد العدة للقائهم وقد وصل العرب حتى مدينة تور على نهر اللوار وأخذوها عنوة بمشهد من جيش شارل مارتل . ثم تلاقى الجمعان بين تور وبواتييه واشتد الظى المعمعة وأبلى فيها عبد الرحمن بلاء حسنا إلى أن قتل ففر العرب واحتموا بمدينتهم الحصينة أربونة .

ومن أهم العوامل التى خذلت العرب فى هذه الموقعة التى يسمونها بلاط الشهداء حرصهم على الغنائم التى أحرزوها قبل المعركة وكان عبد الرحمن قد هم بأمرهم أن يتركوها حتى لاتبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال ، ولكن توجس خيفة أن يكسر ذلك من قلوبهم فتفتر عزائمهم ، فاذن لهم بحفظها وهو كاره فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم تتطلع إليها . وقد علم الفرنج ذلك فحولوا جزءاً من جيشهم ليهاجم المعسكر وما فيه من الغنائم والأسلاب فارتدت العرب اليه ولم يصمد فى الميدان من يقاتل السواد الأعظم من جيش شارل مارتل فكانت الطامة الكبرى . ١١٥ هـ و ٧٣٣ م .

وقد بالغ مؤرخو الفرنجة فى وصف هذه الموقعة ونتائجها وقالوا لولاها لانتشر الاسلام ورفرف العلم العربى على أوربا جمعاء كما هولوا فى بطولة شارل مارتل لأن جيش العرب على زعمهم كان نصف مليون أبيد منه ثلاثمائة وخمسون ألفا من الجنود الأبطال . وهذا ولا ريب ظاهر المبالغة لأن جحفلا هذه عدته من العسير جمعه ،

وإذا جمع فمن الصعب ضبطه وتموينه فى تلك القرون الخوالى . وقالوا انه سمى مارتل أى المطرقة منذ ذلك الوقت .

وقد حاول الفرنسيون أن يخرجوا العرب من أربونة بعد ذلك فصمدت لهم وشغل شارل مارتل فعاود العرب الكرة واحتلوا مدينة ليون من جديد وكل مقاطعة بروفانس الى أن أجلاهم عنهـــا وعن أربونة بيبين القصير ابن شارل مارتل سنة ٧٥٩ م

وهنا يظن كثير من الناس أن تاريخ العرب بفرنسا قد انتهى ويحارون فى تعليل كثير من الآثار التى وجدت فى جبال الألب وسـويسره والبروفانس . وسنبين فيما يلى عهداً أطول وأزهر للعرب فى فرنسا .

استعمل العرب الاساطيل منذ جاء إلى الاندلس الامير عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل وهاجموا فرنسا من الجنوب وكان نزولهم فى المكان المعروف حتى الآن بـ Antibe أى عين الطيب بالغرب من نيس التى يقول لها العرب (نيقية) كما مهدوا لذلك بالاستيلاء على سردينيا وكورسيكا ، ويوجد بسردينية حتى الآن فى ولاية غالياري hagliari قرية أصل سكانها من العرب وقد دخلوها سنة ٨٠٦ فى حكم شارلمان ، وفى هذه الآثناء جرت حادثة مهمة أدت إلى الاستيلاء على جزيرة كريت ، وذلك أن أهالى ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار إليهم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف وكانوا زهاء خمسة عشر الفا فأركبهم البحر فدخلوا الاسكندرية عنوة بيد أن حاكمها أجلاهم عنها فنزحوا الى جزيرة كريت بقيادة أبوحفص عمر البلوطى سنة ٢٥٠ هـ ، ٨٢٥ م وبقوا فيها ١٣٥ سنة ولكن غلب عليهم الروم وتنصر معظمهم وفر من فريدينه .

أما صقلية فكانت من أوائل البلاد التى احتلها العرب وقد غزيت أول الامر هى وكريت فى عهد معاوية بن أبى سفيان وثانيا سنة ٢١٣ هـ على يدقاضى القيروان أسد بن الفرات واستتب بها أمرهم وشادوا بها المساجد الكثيرة حتى روى ابن حوقل الرحالة الشهير أنه رأى فى بالرم عاصمتها عشرة مساجد على مقدار رمية

السهم ودام ملك المسلمين بها الى سنة ٤٦٤ حينما غلبهم عليها الفرسان النورمانديون بيد أن الأسلام بقى بها بعد ذلك وكان ملوكها المسيحيون يحبون العرب ويثقون بهم وقد ازدهرت الثقافة الاسلامية العربية خصوصا فى عهد فردريك الثانى امبراطور جرمانية وملك صقلية الذى كان كل شىء فى قصره عربيا من نساء وجوارى وحاشية بل كان وزراؤه من المسلمين وأحب اللغة العربية وتزيى بزى العرب وفى عهده كان أول اتصال الانجليز بالعرب فترجم روبرت الانجليزى القرآن لأول مرة

ايطاليا :

ومن صقلية أغار العرب على ايطاليا قال المسعودى فى مروج الذهب : ان المسلمين جاوروا اللمبارديين وغلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل بارى (باره) وطاريفتو ثم قال ان مدينة تارنتو وسيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان الى أن أجلاهم عنها فردريك الثانى فى أوائل القرن الثالث عشر وإحصاء من تبع من أهالى صقلية المسلمين أجل من أن يذكر وناهيك بابن حمديس الصقلى الشاعر المشهور وبجوهر الصقلى مؤسس الازهر وغيرهما .

وهنا ننتقل بكم أيها السادة إلى فرنسا مرة أخرى . فى سنة ٨٨٥ نزل جماعة عن قراصنة البحر العرب بعد أن قذفت بهم ريح زعزع عاتية على شاطىء بروفانس الجنوبى بالقرب من مرسيليا فوجدوا غابة كثيفة تصلح لهم مأوى فأسرعوا باحتلالها ولاتزال تعرف باسمهم حتى اليوم غابة (مورو) ووجدوا جبلا عاليا يشرف على البحر ويطل على وديان بروفانس ويعرف اليوم بجبل (مورو) نسبة اليهم فاحتموا بها وأسسوا حصنا عظيما هو حصن فراكسينا توم . ثم جاءتهم الامداد من أسبانيا وأخذوا يقذفون الرعب فى قلوب القرى المجاورة واستفحل أمرهم ، وكان ملوك المقاطعات الفرنسية الجنوبية فى شقاق ونزاع فاستعانوا بهؤلاء العرب الذين أصبحوا سادة البلاد الحقيقيين . وأخذوا يتقدمون يوما فيوما نحو جبال الالب وفى سنة ٩٠٦ دخلوا مقاطعة دوفينى واحتلوا جميع المضايق التى تصل فرنسا بايطاليا وقطعوا المواصلات بينهما فصار مرور الناس عائدا الى أذنهم ثم شرعوا يشنون الغارة على بيمونت وسافوي واستولوا على نيس مرة ثانية وجرينوبل

وجنيف ولوزان فى وادى valais واشتكى المطران فالدو سنة ٩٤٠ من غارات العرب الى الامبراطور أوتون الالمانى ، لأن الاديرة قد لاقت من الخراب على أيديهم شيئا كثيرا ولان معابر الالب كانت بأيديهم والقسس والرهبان كانوا مضطرين الى زيارة روما كل سنة للحج فقطع عليهم العرب الطريق ونكلوا بهم تنكيلا فأقطع أوتون الرهبان أملاكا كثيرة على سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ سنة ٩٥٦ لايزال محفوظا فى أديرة سويسرا .

وقد حاول Heigues هوغ ملك بروفنس أن يخرج المسلمين ورأى أن أهم معقل لهم هو حصن فراسينت فطلب من صهره حاكم القسطنطينية أن يمده بسفن حربية ترمى عليهم النار من البحر بينما يقوم هو بمهاجمتهم من البر فاستجاب صهره لدعوته وكاد يقضى على العرب فى ذلك الوقت بيد أن منافسا لهوغ يدعى Berenger ببرانجه قدم من ايطاليا على رأس جيش عرمرم فاضطر هوغ الى مهادنة العرب على أن يبيح لهم كل جبال الألب على شريطة أن يقطعوا على بيرانجه طريق العودة من ايطاليا ، وهنا اشتد بأس العرب وقويت عزيمتهم فأمعنوا فى الغزو والغارة ونفذوا ماوعدوا به هوغ وهنا يقول المؤلف الألمانى المشهور ليويتراند فى (هوغ) .

« إنه جاء بها صلعاء مفحشة لاسبيل للعذر فيها . ويخاطب عرسان برنار بقوله : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصنا وافيا للطغاة الذين يقال لهم المورو أفلا تخجل أيها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشرى » .

وقد ترك العرب آثارا تدل على مكثهم زمنا طويلا بهاتيك البلاد ويوجد بكنيسة القديس بطرس مونتجو فى Valais كتابة عربية طمست ولم يبق منها الا بعض الحروف وقد وردت نصوصها اللاتينية وفيها « ان عصابة اسماعيلية انتشرت فى وادى الرون وألقت الرعب فى البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال فى أودية الألبين » .

هذا وقد جاء فى تاريخ جمهورية جنوه لمؤلفه فردريك دى نافار أنه فى سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية اسلامية من أفريقية فحصرت جنوه حصارا شديدا ولم يتمكنوا من دخولها هذه المرة بيد أنهم عاودوا الكرة ودخلوها وأخذوا غنائم كثيرة ورجعوا

فحص أهل جنوة بلدهم منذ ذلك الوقت .

وهناك قرية بجوار رون يقال لها سراسينشكو أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقعوا الى تلك الأرض فأحاط بهم الأهالى وقتلوا بعضهم وتنصر بعضهم ويقال ان سحنهم لاتزال تدل على أصلهم العربى وأن مآكلهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عروبتهم .

وفى القسم الغربى من وادى الساس بسويسرا الألمانية (مشابل وادى الزاس) وهى جمع مشبل مكان الأسود وفى القسم الاعلى منه مثلجة على العين Alain .

هذا وكان العرب أينما حلوا يقيمون ويزرعون ويعمرون ويتزوجون من الاهالى ولكنهم أجلوا عن بروفانس كلها فى أواخر القرن الحادى عشر ، ووقع فى الاسر منهم عدد كبير تنصر معظمهم واختلط بالأهالى .

وذكر الأستاذ دالماس أستاذ الامراض النسائية بكلية الطب بمونبليه فى محاضرته عن فضل العرب على جامعة مونبليه .

إن العرب نزلوا ببلدة ماجلون (جمع ماجل) وهو مجتمع الماء (ذكر أبو الوليد الأزرقى صاحب كتاب أخبار مكة كان بمكة ماجلان أحدهما بالمعلاة) وأقاموا بها مدة من الزمن إلى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لايعودوا اليها وكانوا فى أثناء وجودهم فيها يبيعون الكتب الطبية ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون التطبيب . ويقال إنه يوجد فى متحف الجامعة بعض آثار وجدت فى ماجلون عليها بعض الايات القرآنية والاشعار العربية كما توجد على لوحة الاستاذية أسماء كثير من الاطباء الذين تعلموا الطب فى الاندلس .

— وعلى العموم فأثرهم فى جنوب فرنسا فى الرى والزراعة عظيم وهم الذين علموهم زراعة الأرز والصنوبر واستخرج القطران الذى تطلى به المراكب منهما ولا يزال يقال له حتى الآن فى هذه المقاطعة quitran قطران .

هذا وقد ظلت أسر عربية عديدة بعد تقلص حكم المسلمين من الأندلس تقطن فرنسا وسويسرا بعد أن أرغموا على اعتناق النصرانية ومنهم فى جنيف العلامة ابن أبى زيد الذى كان معاصراً لفولتير وروسو وكان من أهل طولوز الذين تنصروا

واعتنقوا البروتستانتية فلما صدر أمر لويس الرابع عشر بطرد كل البروتستانتيين من فرنسا خرج أبو زيد إلى جنيف ، وكان نابغا متضلعا فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفه والتاريخ وغيرها ، كما كان صديقا لفولتير وروسو وثيوتن وكانوا يستفتونه فى غويص المسائل . ولايزال فى جنيف شارع مشهور باسم أبى زيد حتى يومنا هذا .

ووجود العرب فى جنوب فرنسا وسويسرا يفسر لنا ما أشكل على كثير من المستشرقين ، وفشلهم فى تعليل وجود التروبادور فى مقاطعة بروفانس فى أوائل القرن الثالث عشر ، مع أنه قريب جدا فى نغمه ووزنه وموضوعه من الموشحات الاندلسية . وأخذوا يتساءلون كيف وصل هذا الشعر إلى بروفانس ومن نقله ومن ترجمه . الواقع أن العرب الذين أقاموا فى هذه المقاطعة وفيما جاورها هم الذين نقلوه من الاندلس وهم الذين أثروا فى الشعر الفرنسى حتى أنتج التروبادور . وهذه الكلمة نفسها يحوى مقطعها الاول كلمة عربية أصيلة فى الغناء وهى (طروب) (١)

كلمة موجزة عن الحضارة العربية فى أوربا

ويكفيك أن تعلم أن سكان قرطبة قد بلغ نصف مليون نسمة وكان بها ٧٠٠ مسجد ، وثلثمائة حمام . وقد بلغ عدد منازلها مدة حكم عبد الرحمن الناصر ١١٣ ألف منزل وكان لها احدى وعشرون ضاحية وبها سبعون مكتبة عامة ، بل كانت المكاتب أحيانا فى الحدائق والمتنزهات .

وكانت شوارعها مرصوفة ومضاءة بالليل جميعها بمصابيح النفط ويوازن john Drapar (٢) بينها وبين لندن فيقول : لقد مضت سبعة قرون بعد ذلك ولم يكن فى لندن مصباح واحد يضيئها ليلا . أما باريس فقد مرت عليها بعد ذلك عدة قرون وهى تعج بالطين والوحل كلما أمطرت السماء ، ولا يكاد المرء يخرج من منزله حتى يغوص فيه بقدميه .

---

(١) The Legach of Islam

(٢) History of Intelectual development of Europe

وبينما كان يعد طابة أكسفورد الاستحمام عادة وثنية كان علماء قرطبة يتمتعون منذ أجيال بالاستحمام فى أحواض أنيقة . ولقد حدث هذه الحال التى كان الأوربيون يعيشون فيها من التأخر والانحطاط ابن سعد صاحب الطبقات أن يعلل ماهم عليه فيقول : « لما كانت الشمس تشرق عليهم منحرفة صار جوهم باردا ملبدا بالغمام ، وقد أدى ذلك إلى برودة مزاجهم وخشونة طباعهم بينما ضخمت أجسامهم وطالت شعورهم ، وقلت حدة ذكائهم ونفاذ بصيرتهم ، ولا ترى بين رجالهم إلا البلادة والغفلة » .

كانت قرطبة بمثابة باريس أو لندن أو نيويورك فى عصرنا هذا . كلما احتاج ملك ليون أو نافار أو برشلونة طبيبا أو مهندسا أو أستاذا فى الموسيقى أو حائكا اتجهوا صوب قرطبة .

وكانت انجلترا وفرنسا تستورد من الأندلس فى ذلك العهد الجلود المدبوغة والثياب والنسيج والحرير والصوف والأوانى الزجاجية والنحاسية والحديدية والرصاصية .

وكانت الحلى الياقوتية والذهبية تصنع فى ملقا . وكانت زخرفة الآنية بالفضة والذهب ، ونقش الأزهار عليها صناعة رائجة فى الأندلس أخذها عرب المغرب عن دمشق الشام ومن هنا دخلت هذه الكلمة فى اللغات الأوربية مثل Damascene بالانجليزية و Damashcan بالألمانية و Damasquines بالأفرنسية .

وقد أدخل العرب طرق الزراعة الحديثة فى أسبانيا وكثيرا من أشجار الفاكهة فحفروا القنوات التى لاتزال تسمى حتى اليوم فى أسبانيا acquia من العربية الساقية وهناك كلمة الأرز بالانجليزية Rice وبالأسبانية arroz وكلمة برقوق بالأسبانية olbaricoque وانقلبت فى الانجليزية opricot والرمان حيث لايزال عصيره يسمى كيذلك فى أسبانيا . والزعفران بالانجليزية Soffron وبالأسبانية ozofran وكلمة شراب بالأسبانية Jarobe وبالانجليزية Syrup إلى غير ذلك من ألوف الكلمات التى لاتزال متغلغلة فى صميم الحياة الأسبانية والبرتغالية خاصة وأوربا عامة ولا سيما فى العلوم والاصطلاحات فالموسيقى مثلا يدين بها الأوربيون للعرب إذ أن

آلاتها عربية فالقيثارة صارت guitae والعود lute والرباب Rebeck . وليس هذا فحسب بل إن النوطة الموسيقية التى اخترعها الخليل بن أحمد وزاد عليها الفارابى والكندى وابن سينا مع ماعرفوه من الموسيقى اليونانية قد أثرت أثرا كبيرا فى الموسيقى الأوربية إذ لم تكن أوربا قبل العرب تعرف العزف الجمعى «أوركسترا» إلى أن أدخلت الكتابة الموسيقية العربية ، وقد أهدى هارون الرشيد لشرلمان ملك فرنسا منسوجات حريرية وقطنية لم يكن لها وجود فى فرنسا ، وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر عظيم الحجم وساعة من نحاس أصفر أيضا تتحرك بالماء وتدق اثنتى عشرة مرة بعدد ساعات النهار .

ولم يكن أهل أوربا يعرفون بناء السفن على شكل منظم واسع دقيق وأول من فعل ذلك هو عبد الرحمن الداخل وأسس « دار الصنعة » التى انقلبت فيما بعد دارسنا ثم آرسنا وأضيفت اليها لام النسبة فصارت أرسنال وحرفها الترك إلى « ترسانة » وكان قائد الإسطول يسمى أمير الماء ومنه جاءت كلمة أميرال .

هذا ونظام الفروسية Chevallerie الذى كان معروفا فى أوربا فى خلال القرون الوسطى قد تقرر فى عهد المنصور ابن أبى عامر ، ومن العرب أخذه الفرنسيون ومنه انتشر فى سائر أنحاء القارة .

وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى أوربا ، وكان العرب يذهبون إلى بلاد الجرمانيين حتى شواطىء البلطيق ، وبلاد السلاف ، ويأتون بأصناف الرقيق ، ويسمون الجميع صقالبة ومفردها صقلبى ومن هنا جاءت كلمة Esclove بالفرنسية وبقيت فى الانجليزية Slave .

كان ملوك أوربا فى دهشة عظيمة من ملك العرب فى الأندلس ، وكانوا يرسلون إلى الأمويين ولا سيما عبد الرحمن الناصر الفراء والهدايا ، فكانت رسل البابا وامبراطور القسطنطينية ، وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا والصقالبة تعد من الفخر أن يسمح لها عبد الرحمن الناصر بتقبيل يده ، وكان هو الآخر يبالغ فى إكرامهم ، ويفرش الأرض والطرقات بالبسط ليظهر عظمته وغناه وقوته .

وأخيرا كانت طليطلة فى القرن الثالث عشر كعبة الأوربيين فى العلوم والمعارف وان تقلص عنها ظل الاسلام . وذلك مدة لويس الحكيم الذى كان يكتب بالعربية ويدرس فلسفة ابن رشد ويلعب بالشطرنج الذى علمه له العرب .

ويجدر بنا قبل أن نختتم هذه الكلمة أن نذكر الدواعى العامة التى أدت الى خروج العرب من أوربا .

(١) استعان العرب بالبربر فى غزو أوربا ، والبربر شعب عنيد صلب القناة ، يشبه العربى فى استقلاله برأيه وشغفه بالسيطرة والحرية فما استقر بالغزاة الأمر فى الأندلس حتى ابتدأ التنافس .

كان العرب هم السادة ، والبربر مسودين فأنفت طباعهم البدوية قبول السيطرة طواعية ، وقدما لم يقبلوا الاسلام إلا بعد أن غزاهم العرب اثنتى عشرة مره ، وصاروا يتربصون باسيادهم الدوائر ، وكلما لاحت فرصة انتقاض على الحكم أو بارقة أمل باستقلال مقاطعة سارعوا اليها ، وهكذا كانوا دائما من أكبر عوامل الشغب والاضطراب . فاذا نكل البرابرة بالعرب انتهز الفرنجة الفرصة وطردوهم من احدى المقاطعات ، واذا عاود العرب الكرة على البربر هاجم الفرنجة الفريقين ، والأدهى من ذلك أن كلا الفريقين كان يستعين بالأجنبى (أيام هشام الثالث مثلا) وكان الأجانب يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون .

(٢) وياليت الأمر اقتصر على هذا العدو الداخلى والعدو الخارجى ، بل كان العرب أنفسهم فى حالة يرثى لها ، حملوا معهم من الشرق عصبياتهم وحزبياتهم وعنعناتهم ، فشيعة وسنة ، ويمنية وقيسية ، ويروى (دوزى) المؤرخ المشهور :أن اليمنية والقيسية خرجوا فى سنة ١٣٧ هـ من قرطبة للقتال فالتقوا قرب (شقندة) على نهر قرطبة ، ولما صلوا الصبح أخذوا يتطاعنون بالرماح حتى تكسرت ، ثم تضاربوا بالسيوف حتى تقطعت ثم تقابضوا بالأيدى وأخذ كل بتلابيب أخيه وشعره ولم يكن فى الاسلام موقعة أشد هولا بين المسلمين منها الا صفين ، ولما أعيا بعضهم بعضا أخذ بعضهم يضرب وجوه بعض بالقسى ويحثون التراب على الرؤوس

ويقول دوزى : ان بغض القيسية لليمن ، واليمن للقيسية أشد من بغض العرب والعجم ، ولقد استمرت هذه العداوة حتى آخر أيامهم فلما هاجم فرديناند وايزابلا مدينة غرناطة ، آخر حصون العرب بالاندلس كان أهلها يحاربون العدو نهارا فاذا جن الليل أخذوا يقتتلون فيما بينهم ، ولو وحدوا صفوفهم ، وائتلفت قلوبهم وتنبهوا للخطر الذى حاق بهم وتناسوا الاحقاد والاحن ولو فى الساعات العصيبة لتغير وجه التاريخ ، ولكن هكذا كانت مشيئة الله « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

(٣) ومن أسباب الخذلان كذلك زواج أمراء الجيوش التى كانت تحارب الفرنجة ببنات الملوك بعد أخذهن أسرى ، وكان هؤلاء الزوجات يؤثرن على أزواجهن فيتقاعسون عن القتال كما حدث من عثمان ابن أبى عنسه قائد جيوش عبد الرحمن الغافق والى الاندلس اذ تزوج عثمان ابنة دوق أكتانية وامتنع عن قتال الفرنسيين فحبسه عبد الرحمن وطلقها منه فأرسلها وغيرها من السبايا الى الخليفة هشام بدمشق وتزوج منها هشام .

لقد كان هذا السبب حتى فى العصور الاخيرة بمراكش والجزائر من أكبر العوامل التى ادت الى ضياع سلطان المسلمين ولقد صدق الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حيث يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »

(٤) لما استقل الامويون بملك الاندلس انقطع ذلك المدد الذى كان يأتيهم من افريقية ومصر والشام والعراق ويلقح دماءهم بالدم العربى الشرقى ، ويحمل لهم قبسا من أرض العروبة ومهدها ويبث فيهم تلك الروح الوثابة التى مكنت أجدادهم من الفتح فيحيى موات قلوبهم .

ثم ان موارد الاندلس وحدها لم تكن كافية لمتابعة القتال ضد الفرنجة مع كثرتهم ، فابتدأ هؤلاء يقتطعون الدولة من أطرافها حتى تمكنوا أخيرا من اجلاء العرب عنها ، وبينما كان عرب الاندلس ينفصلون عن جسم الدولة العربية الكبرى

كانت فرنسا في عهد بيبيه القصير وابنه شرلمان تتحد وتقوى وتبسط نفوذها على من جاورها

٥) وياليت الامر يبقى عند هذا الحد فان أعيان الاندلس ورؤساءها انتهزوا فرصة ضعف الخليفة في قرطبة وأخذوا يكونون دويلات صغيرة عرفوا بها فيما بعد وسموا بملوك الطوائف كبني عباد باشبيلية ، وبني الافطس ببطليوس ، وبني ذي النون بطليطلة ، وبني الاحمر بغرناطة ، وبني هود بسرقسطه ، وهكذا شاء الله أن يجعل هذه الامة العربية تضعف وتنحل اذا تخاذلت وتمكنت من نفوس أبنائها النزعات الشخصية والاثرة ، وتقوى وتسود اذا اتحدت كلمتها وسارت تحت لواء واحد وزعيم واحد . وما أشبه الليلة بالبارحة .

عمر الدسوقي
المدرس الاول بمدرسة الخديو اسماعيل